بحث

في موضوع الزينة في القرآن

بقلم
الدكتور
محمد أحمد طه علي

وردت كلمة الزينة ، وما اشتق منها فى القرآن ستا وأربعين مرة فى اثنتين وأربعين آية فى ثمان وعشرين سورة .

ولهذه الكلمة استعمالات عديدة فى القرآن ، تبلغ ثلاثة وعشرين معنى ، وقبل سرد تلك المعانى يجدر بنا أن نعرف كلمة الزينة ، ونذكر أقسامها نقلا عن العلماء :

تعريف الزينة :

جاء فى اللسان « أن الزين خلاف الشين »(١) .

وقال الراغب فى المفردات : الزينة فى الحقيقة : مالا يشين الإنسان فى شىء من أحواله ، لا فى الدنيا ولا فى الآخرة ، فأما ما يزينه فى حالة دون حالة فهو من وجه شين ومن وجه زين(٢) بتصرف .

وقد مثل لذلك الإمام الرازى فى تفسيره عندقوله تعالى : «زين للناس حب الشهوات من النساء...)(٣) .

ما خلاصته : إن المسلم قد يحب بعض المحرمات ، وهو يود لو انقلب حبه كرها وبغضا ومن أحب شيئاً ولم يؤمن له يوشك أن يرجع عن حبه يوما ، وأما من زين له حبه لشىء فلا يكاد يرجع عنه ، لأن ذلك منتهى

(١) اللسان مادة زين .
(٢) المفردات للراغب الأصفهانى ص ٢٢٣
(٣) سورة آل عمران آية ١٤

الحب ، وصاحبه لا يكاد يفطن لقبحه وضرره إن كان قبيحا أو ضاراً ولا يحب أن يرجع وإن تأذى به(١) .

أقسام الزينة :

تنقسم الزينة إلى ثلاثة أقسام :

١ — زينة نفسية : كالعلم والاعتقادات الحسنة .

٢ — زينة بدنية : كالقوة وطول القامة وتناسب الأعضاء .

٣ — زينة خارجية : وهى نوعان :

النوع الأول : لصيق بالإنسان كالمال والجاه .

النوع الثانى : محيط به وهى الزينة الكونية ، كزينة الأرض بالنبات وزينة السماء بالكواكب المنيرات .

ولا تخرج استعمالات هذه الكلمة فى القرآن عن هذه الأقسام الثلاثة .

استعمالات كلمة الزينة فى القرآن :

وقد استعملت كلمة الزينة فى القرآن على ثلاثة وعشرين(٢) وجها : —

الأول : زينة الدنيا :

قال تعالى : «اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم

(١) الفخر الرازى جـ ٧ ص ١٩٥
(٢) انظر بصائر ذوى التمييز « بصيرة فى الزين » .

وتكاثر فى الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يكون حطاما وفى الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور[1].

فى هذه الآية أخبر الله عن الدنيا بأوصاف خمسة كلها يدل على عدم الثبوت والاستقرار فان هذه الأطوار من اللهو واللعب والزينة والتفاخر، والتكاثر فى الأموال والأولاد سريعة التغير، كثيرة التقلب فلا تبقى على حال، وهـذا درس لمن يريد الدنيا صفواً دائماً، إنما يريد ضرباً من المحال:

طبعت على كدر وأنت تريدها
صفواً من الأحزان والأكدار
ومكلف الأيام غير طباعها
متطلب فى الماء جذوة نار

وهذه الأوصاف ليست ذما للحياة لأن الحياة العاجلة لا يصلح اكتساب السعادات الأخروية إلا فيها.

وإنما وصفت بهذه الصفات لبيان حقارتها، إذا ما قورنت بصفات الآخرة، وحاصل ذلك أن اللذات فى هذه الحياة والطيبات المطلوبة منها، إنما سماها باللعب واللهو والزينة ... إلخ، لأن الإنسان حال اشتغاله بهذه الأوصاف يتلذذ بها، ثم عند انقراضها وانقضائها لا يبقى منها إلا الندامة، فكذلك هذه الحياة لا يبقى عند انقراضها إلا الحسرة والندامة.

(١) سورة الحديد آية ٢٠

واعلم أن تسمية هذه الحياة بتلك الأوصاف الخمسة يدلنا على أمور:

الأمر الأول: أن مدة هذه الأوصاف قليلة سريعة الانقضاء والزوال كما أسلفنا ومدة هذه الحياة كذلك.

الأمر الثانى: أن هذه الأوصاف لا بد وأن ينساق فى أكثر الأمر إلى شىء من المكاره، ولذات الدنيا كذلك.

الأمر الثالث: أن هذه الأوصاف ليست لها عاقبة محمودة، بل تختلف باختلاف أحوال الدنيا، فمن ركن إليها واغتر بها كانت عاقبته مذمومة، ومن فطن إلى تلك الأوصاف فلم يفتتن بها، بل اتخذ الدنيا وسيلة توصله إلى بر الأمان والسلام كانت عاقبته محمودة، وقد أشار الله فى هذه الآية إلى عاقبة كل من الفريقين فقال: —

« وفى الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان ».

وإذا وقفنا عند كل صفة من هذه الصفات الخمس يطول بنا المجال، ونكتفى بصفة واحدة وهى موضوع بحثنا ألا وهى الزينة.

وحكمة وصف الدنيا بأنها زينة:

بالإضافة إلى ما سبق ذكره ما بينه الرازى بقوله:

« الزينة هى تحسين القبيح وعمارة البناء المشرف على أن يصير خراباً، والاجتهاد فى تكميل الناقص، ومن المعلوم أن العرضى لا يقاوم الذاتى، فإن كانت الدنيا منقضية لذاتها فاسدة لذائها فكيف يتمكن العاقل من إزالة هذه المفاسد عنها[1] بتصرف.

(١) التفسير الرازى جـ ٢٩ صـ ٢٣٣

وقال الآلوسى : «الزينة لايحصل منها شرف ذاتى كالملابس الحسنة، والمراكب البهية والمنازل الرفيعة»[١] .

هذا وقد نهى الله نبيه أن يغتر بزينة الحياة الدنيا ، وذلك بالركون إلى أهلها ومطاوعة أمرهم وإجابة طلبهم ، حيث إن جماعة من أغنياء قريش ، طلبوا من النبى — ﷺ — : إبعاد الفقراء عن مجلسه وقت مجيئهم إليه ، فهم النبى ﷺ أن يفعل[٢] ذلك بأن يجعل للفقراء يوما وللأغنياء يوما فأنزل الله قوله تعالى : « واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا[٣] ... الآية » :

كما بين الله تعالى حقارة هذه الزينة وأن من يطلبها لذاتها فهو الخاسر فى الآخرة قال تعالى :

« من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم لا يبخسون أولئك الذين ليس لهم فى الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون »[٤] .

قال صاحب المنار فى معنى هذه الآية : « أى من كان كل حظه من وجوده التمتع بلذات هذه الحياة الأولى ، التى هى أدنى الحياتين اللتين لهما وهى : الطعام والشراب والوقاع وزينتها من اللباس والأثاث والرياش والأولاد والأموال ، لا يريد مع ذلك استعدادا للحياة الآخرة ولقاء الله تعالى بالبر والإحسان ، وتزكية النفس بباعث الإيمان ، «نوف إليهم

(١) روح المعانى جـ ٢٧ ص ١٨٤
(٢) تفسير ابن كثير جـ ٣ ص ٨٠
(٣) سورة الكهف آية ٢٨
(٤) سورة هود آيتان ١٥ ، ١٦

أعمالهم فيها » أى نؤد إليهم ثمرات أعمالهم التى يعملونها وافية تامة بحسب سنتنا فى الأسباب والمسببات ونظام الأقدار ، « وهم فيها لا يبخسون » وهم لا ينقصون فيها شيئا من نتائج كسبهم لأجل كفرهم ، فإن مدار الأرزاق فيها على الأعمال السببية ، لا على النيات والمقاصد الدينية ، ولكن لهداية الدين تأثيرا فيها من ناحية : الأمانة والاستقامة والصدق والنصح واجتناب الخيانة والزور والغش،وغير ذلك من الصبر والتعاون على البر والتقوى ، ولأهلها العاقبة الحسنة فيها ، وكرر لفظ «فيها» للتأكيد والإعلام بأن الآخرة ليست كالدنيا فى وفاء كيل الجزاء وفى بخسه ، فإنه فيها منوط بأمرين : كسب الإنسان ، ونظام الأقدار ، وقد يتعارضان ، وأما جزاء الآخرة فهو بفعل الله تعالى مباشرة : «ولا يظلم ربك أحدا » .

« أولئك الذين ليس لهم فى الآخرة إلا النار » أى أولئك الموصوفون بما ذكر ليس لهم فى الآخرة إلا دار العذاب المسماة بالنار، لأن الجزاء فيها كالجزاء فى الدنيا على الأعمال،وهم لم يعملوا لنعيم الآخرة شيئا ، فإن العمل لها إنما هو تزكية النفس بالإيمان والتقوى التى هى اجتناب المعاصى والرذائل وأعمال البر والفضائل ، « وحبط ما صنعوا فيها » فسد ما صنعوا مما ظاهره البر والأحسان كالصدقة وصلة الرحم ، فلم يكن له تأثير فى تزكية أنفسهم والقربة عند ربهم ، لأنه إنما كان لأغراض نفسية من شهوات الدنيا كالرياء والسمعة ، والاعتزاز بأولى القربى على الأعداء ولو بالباطل .

كذلك ماظاهره البر والأحسان من أعمال الناس إذا كان الباعث عليه سوء النية مما ذكرنا .

« وباطل ما كانوا يعملون » أى وباطل فى نفسه ما كانوا يعملونه فى

الدنيا ، لأنه لاثمرة له ولا أجر فى والآخرة وإنما الأعمال بمقاصدها ، والنتائج تابعة لمقدماتها ، فإن كان فى عملهم خير ونية حسنة يجازون عليه فى الدنيا (١) . ا.هـ

ثانيا : زينة أهل الدنيا فيها :

قال تعالى : « المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا » (٢) .

ذكرنا فى الآية السابقة أن الله تعالى أخبر عن الدنيا بأنها زينة وفى هذه الآية فصل أنواع الزينة وماتشتمل عليه فقال : « المال والبنون زينة الحياة الدنيا » والمعنى : المال والبنون زينة يتزين بها الإنسان فى هذه الحياة الدنيا ، ويتباهى بها على غيره ، وإنما كانا كذلك ، لأن فى المال كما يقول القرطبى :

جمالا ونفعا ، وفى البنين قوة ودفعا (٣) ...

وقدم لفظ المال على البنين فى الآية لأنه بالمال يقيم الإنسان أوده بالطعام والشراب وبالمال يزين جسده بجميل الثياب ، وبالمال يتوصل إلى البنين قال ﷺ : يامعشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج (٤) الخ ، كذلك بالمال يشيد البنيان ويتسع العمران ، وبالمال يغوص الإنسان تحت الماء ويسبح فى الفضاء ويتقدم فى جميع شئون الحياة .

(١) تفسير المنار ج ١٢ ص ٤١ ، ٤٢
(٢) سورة الكهف آية ٤٦
(٣) تفسير القرطبى ج ٦ ص ٤٠٣٠ ط الشعب .
(٤) رواه البخارى ومسلم .

قال الألوسى : وتقديم المال على البنين — مع كونهم أعز منه عند أكثر الناس — لعراقته فيما نيط به من الزينة والأمداد وغير ذلك ... ولأنه زينة يدونهم من غير عكس فإن من له بنون بغير مال فهو فى أضيق حال (١) .

وفى التعبير بقوله — سبحانه زينة ، بيان وتعبير دقيق لحقيقتهما فهما زينة وليسا قيمة ، فلا يصح أن توزن بهما أقدار الناس ، وإنما توزن أقدار الناس بالإيمان والعمل الصالح ، كما قال تعالى : « إن أكرمكم عند الله أتقاكم (٢) ... » ولذا جاء التعقيب منه — سبحانه — بقوله : « والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا » .

والمقصود « بالباقيات الصالحات ، هنا هى جميع أعمال الحسنات ، رواه ابن أبى طلحة عن ابن عباس وبه قال قتادة وابن زيد وهناك أقوال أخرى ذكرناها فى « كتابنا المال فى ضوء القرآن » .

ثالثا : زينة الإيمان فى قلوب العارفين :

قال تعالى : « ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزينه فى قلوبكم وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان أولئك هم الراشدون فضلا من الله ونعمة والله عليم حكيم (٣) .

هذه الآية تشير إلى استمساك المؤمنين بإيمانهم ذلك أن الله سبحانه وتعالى هو الذى يثبت الإيمان فى قلوب المؤمنين ويحمقه ، بل ويحببه ويزينه ، فى الوقت الذى ينفرهم فيه ويبغضهم فى كل ما يكره من الكفر والفسوق والعصيان » .

(١) روح المعانى ج ١٥ ص ٢٨٦
(٢) سورة الحجرات آية ١٣
(٣) سورة الحجرات آية ٧

قال صاحب كتاب: (فى ظلال القرآن) ما ملخصه: واختيار الله لفريق من عباده، ليشرح صدورهم للإيمان، ويحرك قلوبهم إليه. ويزينه لهم فتهفوا إليه أرواحهم، وتدرك مافيه من جمال وخير ... هذا الاختيار فضل من الله ونعمة، دونها كل فضل وكل نعمة، حتى نعمة الوجود والحياة أصلا، تبدو فى حقيقتها أقل من نعمة الإيمان وأدنى.

والذى يستوقف النظر هنا هو تذكيرهم بأن الله هو الذى أراد بهم هذا الخير، وهو الذى خلص قلوبهم من ذلك الشر: الكفر والفسوق والعصيان، وهو الذى جعلهم بهذا راشدين فضلا منه ونعمة.

وأن ذلك كله كان عن علم منه وحكمة .. وفى تقرير هذه الحقيقة إيحاء لهم كذلك بالاستسلام لتوجيه الله وتدبيره، والاطمئنان إلى ماوراءه من خير عليهم وبركة» [1] ا.هـ.

روى أحمد فى مسنده عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يقول: «الإسلام علانية والإيمان فى القلب — قال ثم يشير بيده إلى صدره ثلاث مرات ثم يقول التقوى هيهنا التقوى هيهنا» وروى أيضا عن رفاعة الزرقى عن أبيه قال: لما كان يوم أحد وانكفأ المشركون قال رسول الله ﷺ: «استووا حتى أثنى على ربى عز وجل» فصاروا خلفه صفوفا فقال ﷺ: «اللهم لك الحمد كله، اللهم لاقابض لما بسطت ولا باسط لما قبضت ولاهادى لمن أضللت، ولامضل لمن هديت، ولا معطى لما منعت ولا مانع لما أعطيت، ولا مقرب لما باعدت، ولا مباعد لما قربت، اللهم ابسط علينا من بركاتك ورحمتك وفضلك ورزقك، اللهم إنى أسألك النعيم المقيم الذى لايحول ولا يزول، اللهم إنى أسألك النعيم يوم العيلة والأمن يوم الخوف اللهم إنى عائذ بك من شر ما أعطيتنا ومن شر

(١) فى ظلال القرآن جـ ٦ ص ٣٣٤٢

ما منعتنا، اللهم حبب إلينا الإيمان وزينه فى قلوبنا وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان واجعلنا من الراشدين، اللهم توفنا مسلمين وأحينا مسلمين وألحقنا بالصالحين غير خزايا ولا مفتونين، اللهم قاتل الكفرة الذين يكذبون رسلك ويصدون عن سبيلك، واجعل عليهم رجزك وعذابك، اللهم قاتل الكفرة الذين أوتوا الكتاب إله الحق.

رابعا: زينة ستر العورة:

قال تعالى: «يابنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد [1] ..الخ الآية».

الآية السابقة التى فى سورة الحجرات تشير إلى الزينة النفسية، وهى زينة الاعتقادات الحسنة كما أسلفنا عند أقسام الزينة، وهذه الآية تشير إلى الزينة الخارجية، ومن هنا نعلم أن القرآن يهيب بالمسلم أن يعنى بباطنه وظاهره، وإلى ذلك يشير قوله تعالى: «إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين [2]» فالتوبة طهارة للباطن، والطهارة طهارة للظاهر فعلى الإنسان أن يجمل باطنه بالإيمان والأخلاص، وأن يجمل ظاهره بجميل اللباس، فمن اهتم بظاهره دون باطنه فمثله كما قال الحكيم:

جمال الشكل مع قبح النفوس كقنديل على قبر المجوس

وقال القائل:

ليس الجمال بمئزر فاعلم وإن وديت بردا
إن الجمال معادن ومناقب أورثن حمدا

وبعد ذلك نقول فى تفسير هذه الآية: إن سبب نزولها أن أقواما كانوا يطوفون بالبيت عراة، فنهوا عن ذلك بهذه الآية

(١) سورة الأعراف آية ٣١ (٢) سورة البقرة ٢٢٢

وذكر العلماء فى المراد بالزينة رأيين :

الرأى الأول :

وأنها الثياب

واختلف أصحاب هذا الرأى على ثلاثة أقوال :

أحداها :

أنه ورد فى ستر العورة فى الطواف قاله ابن عباس والحسن فى جماعة فعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : كانوا يطوفون بالبيت عراة الرجال والنساء ، الرجال بالنهار والنساء بالليل ، وكانت المرأة تقول :

اليوم يبدو بعضه أو كله
وما بدا منه فلا أحله

والثانى :

أنه ورد فى ستر العورة فى الصلاة قاله مجاهد والزجاج ، ويقتضى وجوب اللبس التام عند كل صلاة ، لأن اللبس التام هو الزينة ترك العمل به فى القدر الذى لا يجب ستره من الأعضاء إجماعاً فبقى الباقى داخلا تحت اللفظ وإذا ثبت أن ستر العورة واجب فى الصلاة وجب أن تفسد الصلاة لأن فى ذلك تركا للمأموريه الواجب وتركه معصية والمعصية توجب العقاب .

والثالث :

أنه ورد فى التزين بأجمل الثياب فى الجمع والأعياد ، ذكره الماوردى .

وقال ابن كثير فى هذه الآية وماورد فى معناها من السنة يستحب التجمل

عند الصلاة ولا سيما يوم الجمعة ويوم العيد والطيب لأنه من الزينة والسواك لأنه من تمام ذلك (١) .

الرأى الثانى :

أن المراد بالزينة : المشط قاله أبو رزين .

قال الرازى : الأول أولى لقوله تعالى : « ولا يبدين زينتهن » يعنى الثياب وأيضاً أنه تعالى قال : « قد أنزلنا عليكم لباساً يوارى سوآتكم وريشاً » ، فاللباس الذى يوارى السوأة من قبيل الرياش والزينة ، فوجب حمل هذه الزينة على ستر العورة وأيضاً فقد أجمع المفسرون على أن المراد بالزينة هنها لبس الثوب الذى يستر العورة وأيضاً فقوله : « خذوا زينتكم » أمر ، والأمر للوجوب فثبت أن أخذ الزينة واجب وكل ما سوى اللبس فغير واجب ، فوجب حمل الزينة على اللبس عملا بالنص بقدر الإمكان ا.هـ.(٢) بتصرف .

وعلى ضوء هذه الآية نقول إن هناك حدوداً فى اللباس لا يتجاوزها الإنسان وهى ما يسمى عورة من الرجل والمرأة ، فلا يصح أن يلبس الإنسان لباساً يصفها أو يشف لها ، وعورة الرجل ما بين سرته إلى ركبتيه وبعضهم يرى أن الركبة كذلك من العورة من باب مالا يتم الواجب إلا به فهو واجب ، والمرأة كلها عورة مع غير محارمها على التأبيد ، قال عليه الصلاة والسلام : « يرحم الله نساء المهاجرات الأول لما أنزل الله : « وليضربن على جيوبهن » شققن أكتف مروطهن فاختمرن بها » .

عن أم سلمة لما نزلت : يدنين عليهن من جلابيبهن » خرجن نساء الأنصار كأن على رؤوسهن الغربان من الأكسية » (٣) .

(١) تفسير ابن كثير حـ ٢ صـ ٢١٠
(٢) تفسير الفخر الرازى جـ ١٤ صـ ٦١ (٣) رواه أبو داود فى سننه .

وعن أبى سعيد عن رسول الله ﷺ : « لا ينظر الرجل إلى عورة الرجل ولا المرأة إلى عورة المرأة ولا يفضى الرجل إلى الرجل فى ثوب واحد ولا المرأة إلى المرأة فى ثوب واحد » (١) .

وعن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده : « قلت يارسول الله ، عوراتنا ما نأتى منها وما نذر ؟ قال: احفظ عورتك إلا من زوجتك أو ما ملكت يمينك قلت : يارسول الله فالرجل مع الرجل قال : إن استطعت أن لا يراها أحد فافعل قلت : فالرجل يكون خالياً قال : الله أحق أن يستحى منه الناس» (٢) .

كذلك ينبغى على كل من الرجل والمرأة أن يحتفظ بالخصائص التى وهبه الله إياها ، فعلى الرجل أن يحتفظ برجولته ، والمرأة تحتفظ بإنوثتها فلا يتشبه بعضهما بالآخر فى اللباس .

عن عائشة وقد قيل لها : هل تلبس المرأة النعل ؟ فقالت : قد لعن رسول الله ﷺ الرجلة من النساء» (٣) .

وعن أبى هريرة : « لعن النبى ﷺ الرجل يلبس لبسة المرأة والمرأة تلبس لبسة الرجل » (٤) .

وعن ابن عمرو بن العاص : « رأى النبى ﷺ على ثوبين معصفرين فقال : أمك أمرتك بهذا قلت : أغسلهما يارسول الله ؟ قال: بل أحرقهما وفى رواية : هذه ثياب الكفار فلا تلبسهما (٥) .

إنه من العجب العجاب أن نرى رجالا يتزينون أو يتزيون بزى النساء

(١) رواه مسلم والترمذى (٢) رواه أبو داود والنسائى .
(٣) رواه أبو داود فى سننه . (٤) رواه أبو داود فى سننه .
(٥) رواه مسلم وأبو داود والنسائى .

ونساء تتزين بزى الرجال بدعوة أنه لا فرق بين الرجل والمرأة ، وتقليداً أعمى للمدنية الغربية التى جرت علينا الوبال والتأخر فى جميع ميادين الحياة ، ولو أننا عدنا إلى كتاب ربنا وسنة نبينا ﷺ ما أصابنا ما أصابنا ، ولقد بين النبى ﷺ ما يختص بالرجال والنساء من الزينة .

من ذلك مارواه أبو داوود والنسائى عن على : « رأيت النبى ﷺ أخذ حريراً فجعله فى يمينه وذهباً فجعله فى شماله ثم قال : « إن هذين حرام على ذكور أمتى» (١) .

وللستة إلا مالكا عن عمر من رسالة أرسل بها إلى جيش مسلم : «وإياك والتنعم وزى أهل الشرك ولبوس الحرير فإن رسول الله ﷺ نهى عن لبوس الحرير إلا هكذا — ورفع لنا ﷺ أصبعيه السبابة والوسطى وضمهما » .

كذلك ينبغى على الإنسان ألا يطيل ثوبه لأنه فى ذلك غير مأمون العاقبة من الناحية الظاهرية أو الباطنية ، فمن الناحية الظاهرية ربما يصاب الثوب الطويل ببعض النجاسات فلا تصح صلاته وأما الباطنية فربما يصاب الإنسان بالعجب ، عن ابن عمر رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال : « من جر ثوبه خيلاء لم ينظر الله إليه يوم القيامة » فقال أبو بكر : يارسول الله إن إزارى يسترخى إلا أن أتعاهده فقال : إنك لست ممن يفعله خيلاء» (٢) .

كذلك على المسلم أن يتجمل ما إستطاع بالثياب الحسنة والمظهر الجميل ، روى النسائى عن أبى الأحوص عن أبيه « أتيت النبى ﷺ وعلى ثوب دون فقال لى : ألك مال؟ قلت: نعم قال: من أى المال؟ قلت من كل المال أعطانى الله تعالى من الأبل والبقر والغنم والرقيق قال : فإذا أتاك الله مالا فلير أثر نعمة الله عليك وكرامته» (٣) .

(١) سنن أبى داود والنسائى. (٢) رواه مسلم (٣) رواه النسائى.

وفى حديث لأبى داود : يقول فيه عليه الصلاة والسلام « إنكم قادمون على إخوانكم فأصلحوا رحالكم وأحسنوا لباسكم حتى تكونوا كأنكم شامة فى أعين الناس فإن الله لا يحب الفحش ولا التفحش » (١) .

خامساً : زينة الملابس :

قال تعالى : « يا أيها النبى قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحا جميلا » (٢) .

لقد اختار النبى ﷺ لنفسه ولأهل بيته معيشة الكفاف ، لا عجزاً عن حياة المتاع ، فقد عاش حتى فتحت له الأرض ، وكثرت غنائمها ، وعم فيؤها ، وأغنى من لم يكن له من قبل مال ولا زاد ومع هذا فقد كان الشهر والشهران والثلاث تمضى ولا يوقد فى بيت النبى ﷺ نار ولا يسرج فيه سراج مع جوده بالصدقات والهبات والهدايا ، ولكن ذلك كان اختياراً للاستعلاء على متاع الحياة الدنيا ورغبة خالصة فيما عند الله . رغبة الذى يملك ولكنه يعف ويستعلى ويختار .... ولم يكن رسول الله ﷺ مكلفاً من عقيدته ولا من شريعته أن يعيش مثل هذه المعيشة التى أخذ بها نفسه وأهل بيته ، فلم تكن الطيبات محرمة فى عقيدته وشريعته ، ولم يحرمها على نفسه حين كانت تقدم إليه عفوا بلا تكلف ، وتحصى بين يديه مصادفة واتفاقاً ، لا جرياً وراءها ولا تشهياً لها ، ولا انغماساً ولا انشغالا بها .... ولم يكلف أمته كذلك أن تعيش عيشته التى اختارها لنفسه ، إلا أن يختارها من يريد ، استعلاء على اللذائذ والمتاع : وانطلاقاً من ثقلها إلى حيث الحرية التامة من رغبات النفس وميولها .

(١) رواه ابو داود فى سننه .
(٢) سورة الأحزاب آية ٢٩

ولكن نساء النبى ﷺ — كن نساء ، من البشر ، لهن مشاعر البشر وعلى فضلهن وكرامتهن وقربهن من ينابيع النبوة الكريمة ، فإن الرغبة الطبيعية فى متاع الحياة ظلت حية فى نفوسهن ، فلما أن راين السعة والرخاء بعدما أفاض الله على رسوله وعلى المؤمنين راجعن النبى ﷺ — فى أمر النفقة .

فلم يستقبل هذه المراجعة بالترحيب ، إنما استقبلها بالأسى وعدم الرضى .

أخرج أحمد ومسلم والنسائى وابن مردوية من طريق أبى الزبير عن جابر قال : أقبل أبو بكر رضى الله عنه يستأذن على رسول الله ﷺ والناس ببابه جلوس والنبى ﷺ جالس فلم يؤذن له ثم أذن لأبى بكر وعمر رضى الله عنهما فدخلا والنبى ﷺ جالس وحوله نساؤه وهو ساكت فقال : عمر رضى الله عنه لأكلمن رسول الله ﷺ لعله يضحك فقال : عمر رضى الله عنه يا رسول الله لو رأيت ابنة زيد أمرأة عمر سألتنى النفقة آنفا فوجأت عنقها فضحك النبى ﷺ حتى بدت نواجذه ، وقال : « هن حولى يسألنى النفقة » فقام أبو بكر — رضى الله عنه — إلى عائشة رضى الله عنها ليضربها وقام عمر إلى حفصة كلاهما يقولان : تسألان النبى ﷺ — ماليس عنده ؟ فنهاهما رسول الله — ﷺ — عن هذا فقلن نساؤه : والله لا نسأل رسول الله — ﷺ — بعد هذا المجلس ماليس عنده .. قال : وأنزل الله عز وجل : الخيار ، فبدأ بعائشة — رضى الله عنها — فقال : « إنى ذاكر لك امرأ ما أحب أن تعجلى فيه حتى تستأمرى أبويك » ، قالت : ما هو ! فتلا عليها « يا أيها النبى قل لأزواجك ... الآية » قالت عائشة — رضى الله عنها أفيك استأمر أبوى ! بل أختار الله ورسوله ، وأسألك ألا تذكر إلى امرأة من نسائك ما اخترت ، فقال ﷺ — « إن

الله تعالى لم يعشنى متعنتا وإنما بعثنى مسلما ميسرا . لا تسألنى امرأة منهن عما اخترت إلا أخبرتها[١] » .

فالمقصود بالزينة هنا فى هذه الآية هى الكسوة والملابس فقط وإنما عطفت على الحياة الدنيا مع أنها داخلة فيها وذلك من باب عطف الخاص على العام نظير ذلك قوله تعالى : «من كان عدوا لله وملائكته ورسله وجبريل[٢] وميكال... إلخ الآية» .

سادساً : زينة النساء بالحلى :

قال تعالى : «وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها وليضربن بخمرهن على جيوبهن ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن[٣] ... الخ الآية» .

خص الله سبحانه وتعالى الإناث هنا بالخطاب على طريق التأكيد فإن قوله : «قل للمؤمنين» يكفى لأنه قول عام يتناول الذكر والأنثى من المؤمنين حسب كل خطاب عام فى القرآن الكريم .

والآية تتضمن أحكاما كثيرة إذا ما وقفنا عندها طال بنا المجال ونكتفى بما هو موضوع البحث ألا وهو الزينة :

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٣ ص ٤٨٠

(٢) سورة البقرة آية ٩٨

(٣) سورة النور آية ٣١

تنقسم الزينة إلى ثلاثة أنواع :

أحدها : الأصباغ كالكحل والخضاب بالوسمة فى حاجبيها والغمرة والحناء فى كفيها وقدميها .

ثانيها : الحلى كالخاتم والسوار والخلخال والدملج والقلادة والأكليل والوشاح والقرط .

ثالثها : الثياب .

ويمكن زيادة النوع الرابع وهى الزينة الخلقية : كحسن الوجه وطول الشعر .

فهذه الزينة منها ما يجوز إظهاره ، ومنها مالا يجوز إلا لمن استثناه الله فى هذه الآية .

فاما ما يجوز إظهاره من الزينة كالكحل والخضاب والخاتم والثياب التى لا تشف عما تحتها ، والحكمة فى إظهارها ماذكره الزمخشرى بقوله : فإن قلت : لم سوغ مطلقا فى الزينة الظاهرة ! قلت : لأن سترها فيه حرج ، فإن المرأة لا تجد بدا من مزاولة الأشياء بيديها ومن الحاجة إلى كشف وجهها خصوصا فى الشهادة والمحاكمة والنكاح ، وتضطر إلى المشى فى الطرقات وظهور قدميها وخاصة الفقيرات منهن ، وهذا معنى قوله « إلا ما ظهر منها » يعنى إلا ما جرت العادة والجبلة على ظهوره والأصل فيه الظهور .

وأما الزينة الخفية : كالسوار والخلخال والدملج والقلادة والوجه الحسن إذا خيف منه الفتنة والأكليل والوشاح والقرط فلا تبديه إلا لهؤلاء المذكورين وهم اثنا عشر صنفا وإنما سوغ فى الزينة الخفية

أولئك المذكورون لما كانوا مختصين به من الحاجة المضطرة إلى مداخلتهم ومخالطتهم ولقلة توقع الفتنة من جهاتهم ولما فى الطباع من النفرة عن مماسة القرائب وتحتاج المرأة إلى صحبتهم فى الأسفار للنزول والركوب وغير[1] ذلك .

فالمقصود بالزينة الخفية : هنا هى الحلى إلا ما استثناه الشارع كالخاتم فقط والسوار فيه خلاف ، فبعض العلماء جعله من الزينة الظاهرة ، وبعضهم جعله من الزينة الخفية وعندى هو الأرجح والله أعلم .

سابعاً : زينة العجائز بالثياب الفاخرة :

قال تعالى : «والقواعد من النساء اللاتى لا يرجون نكاحا فليس عليهن جناح أن يضعن ثيابهن غير متبرجات[2] بزينة» .

قال ابن قتيبة : يعنى العجز ، واحدها : قاعد ، ويقال : إنما قيل لها : قاعد ، لقعودها عن الحيض والولد ، وقد تقعد عن الحيض والولد ومثلها يرجو النكاح . ولا أراها سميت قاعدا إلا بالقعود لأنها إذا أسنت عجزت عن التصرف وكثرة الحركة ، وأطالت القعود ، فقيل لها : «قاعد» بلاهاء ليدل حذف الهاء على أنه قعود كبر ، كما قالوا : «امرأة حامل» ليدلوا بحذف الهاء على أنه حمل حبل وقالوا فى غير ذلك : قاعدة فى بيتها ، وحاملة على ظهرها[3] .

والمعنى : والنساء العجائز اللاتى قعدن عن الولد أو عن الحيض ،

(١) الكشاف ج ٣ ص ٦١
(٢) سوره النور آية ٦٠
(٣) زاد المسير ج ٦ ص ٦٢

ولا يطمعن فى الزواج لكبرهن فليس على هؤلاء النساء حرج أن ينزعن عنهن ثيابهن الظاهرة ، والتى لا يفضى نزعها إلى كشف عورة أو إلى إظهار زينة أمر الله — تعالى — بسترها .

فقوله — سبحانه — : «فليس عليهن جناح أن يضعن ثيابهن» بيان لمظهر من مظاهر التيسير فى شريعة الإسلام ، لأن المرأه العجوز إذا تخففت من بعض ثيابها التى لا يفضى التخفف منها إلى فتنة أو إلى كشف عورة ...

فلا بأس بذلك ، لأنها — فى العادة — لا تتطلع النفوس إليها . وذلك بأن تخلع القناع الذى يكون فوق الخمار ، أو الرداء الذى يكون فوق الثياب .

وقوله — تعالى : «غير متبرجات بزينة» حال ، وأصل التبرج : التكلف والتصنع فى إظهار ما يخفى : من قولهم سفينة بارجة أى : لا غطاء عليها .

والمراد به هنا إظهار المرأة زينتها ومحاسنها للرجال الذين لا يصح لهم الاطلاع عليها .

أى : لا حرج على النساء القواعد من خلع ثيابهن الظاهرة حال كونهن غير مظهرات للزينة التى أمرهن الله — تعالى باخفائها ، وغير قاصدات بهذا الخلع لثيابهن الظاهرة التبرج وكشف ما أمر الله تعالى بستره .

وانما خصهن الله تعالى بذلك لأن التهمة مرتفعة عنهن وقد بلغن هذا المبلغ .

فلو غلب على ظنهن خلاف ذلك لم يحل لهن وضع الثياب .

ثامنا : زينة العيد :

قال تعالى : « قال أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك يا موسى فلنأتينك بسحر مثله فاجعل بيننا وبينك موعداً لا نخلفه نحن ولا أنت مكانا سوى قال موعدكم يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحى »[1] .

هذه الآيات وردت فى سياق قصة نبى الله موسى عليه السلام مع عدو الله فرعون بالآيات البينات والمعجزات الواضحات — وكانت المعجزات التى جاء بها موسى عليه الصلاة والسلام من جنس ما اشتهر بها فى هذا العصر وهو السحر — ظن فرعون أن تلك المعجزات سحر فتوعد موسى بقوله : « فلنأتينك بسحر مثل سحرك » فطلب منه موعدا ، واشترط عليه عدم الخلف فى الوعد واقترح أن يكون مكان المبارزة فى وسط المدينة حتى يراها جميع الناس .

ولقد حكى القرآن الكريم أن موسى — عليه السلام — قد قبل تحدى فرعون ورد عليه بقوله : « قال : موعدكم يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحى »

والمراد بيوم الزينة : يوم كانوا يتزينون فيه ويجتمعون فيه وفى هذا اليوم أربعة أقوال[2] :

أحدها : يوم عيد لهم ، رواه أبو صالح عن ابن عباس ، والسدى عن أشياخه ، وبه قال مجاهد ، وقتادة ، وابن زيد .

الثانى : يوم عاشوراء ، رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما .

الثالث : يوم النيروز ، ووافق ذلك يوم السبت أول يوم من السنة ، رواه الضحاك عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما .

(١) سورة طه آيات ٥٧ ، ٥٨ ، ٥٩

(٢) زاد المسير جـ ٥ صـ ٢٩٤ ، ٢٩٥

الرابع : يوم سوق لهم ، قاله سعيد بن جبير رضى الله عنه عليه .

أى : قال موسى عليه السلام لفرعون المنازلة بينى وبينكم هو يوم زينتكم وعيدكم ، وفى هذا اليوم أطلب منكم أن يجمع الناس جميعاً فى وقت الضحى عند ارتفاع الشمس ، لكى يشهدوا ما سيكون بينى وبين سحرتك يا فرعون .

وبذلك نرى أن موسى — عليه السلام — قد قابل تهديد فرعون له ، بتهديد أشد وأعظم ، فقد طلب منه أن يكون موعد المبارزة يوم العيد ، كما طلب منه — أيضا — أن يجمع الناس فى وقت الضحى لكى يشاهدوا تلك المباراة .

قال صاحب الكشاف : « وإنما واعدهم موسى سيدنا عليه الصلاة والسلام ذلك اليوم ، ليكون علو كلمة الله ، وظهور دينه ، وتبيت الكافر ، وزهق الباطل على رؤوس الأشهاد وفى المجمع الغاص لتقوى رغبة من رغب فى اتباع الحق ، ويكل حد المبطلين وأشياعهم ، ويكثر الحديث بذلك فى كل بدو وحضر ، ويشيع فى جميع أهل الوبر والمدر »[1] .

تاسعا : زينة قارون بماله ورجاله :

قال تعالى : « فخرج على قومه فى زينته[2] ... إلخ الآية » .

وخلاصة هذه القصة : كان قارون من قوم موسى عليه السلام ، وقد نشأ فى ربوع مصر ، وآتاه الله ثراء عريضا ورزقه من المال مالا يكاد يحصى ولا يعد ، وهيأ له من وسائل الحياة الهانئة . وأسبابها . الشىء الكثير : فكان مع ثرائه الواسع قوى الجسم وضىء الصورة إلى درجة أنه كان

(١) الكشاف جـ ٢ صـ ٥٤٢ (٢) سورة القصص آية ٧٩

يسمى « المنور » وكان بالإضافة إلى ذلك طلق اللسان ، جذاب الحديث ، آتاه الله كل ذلك ، وآتاه أكثر من ذلك ، فكان منطق الحكمة أن يؤدى لله حق الشكر على نعمه ، وأن يتصرف فيما منحه الله إياه تصرف المعترف بالفضل الذى لا ينكر الجميل .

ولكن قارون كان على العكس من ذلك فارتكب عدة مخالفات تدل على بجاحته وتنكره لنعم الله عليه - ومن أراد أن يطلع على تلك المخالفات فليرجع إلى كتابنا المال فى ضوء القرآن - خوفا على الثروة من أن يصادرها فرعون لو خالفه فيما يرى من رأى ، وغاب عنه أن الثروة والملك والدنيا والآخرة بيد الله وحده ، وكما أنه سبحانه المانح الواهب فإنه تعالى المانع القابض ، ونصحه قومه فلم ينتصح ، بل قال متكبراً إنما أوتيته على علم عندى .

وأراد قارون أن يتحدى ، وأن يسخر وأن يمعن فى التحدى ، والسخرية ممن نصحوه فخرج يوماً على قومه فى موكب كأبهى ما يكون من الزينة والأبهة ، وكأضوأ ما يكون بريقاً وزخرفا ، لقد خرج على قومه فى زينته — فى كل زينته — فمدت إليه الأعين ، وأخذ بريق الذهب الذى يتحلى به الركب يخطف بالأبصار ، ولمعان الفضة المحلاة بها سروج الخيل يخلب الأفئدة .

وتهادى الركب بقارون وهو ينظر يمينا وشمالا فى كبرياء سافر ، وفى غرور مكشوف .

ولم يبين القرآن الكريم هذه الزينة ولكن المقصود منها أنه خرج فى أبهى زينة ومظهر هى زينة المال والجاه ، ومن أراد أن يطلع على هذه القصة كاملة فليرجع إلى كتابنا الذى سلفت الإشارة إليه .

عاشراً : زينة فرعون وآله :

قال تعالى : « وقال موسى ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالا فى الحياة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك[1] ... إلخ الآية » .

قال صاحب الظلال : واتجه موسى — عليه السلام — إلى ربه ، وقد يئس من فرعون وملئه أن يكون فيهم خير ، وأن تكون قد بقيت فيهم بقية ، وأن يرجى لهم صلاح ، اتجه إليه يدعو على فرعون وملئه ، الذين يملكون المال والزينة ، تضعف إزاءهما قلوب الكثيرين ، فتنتهى إلى التهاوى أمام الجاه والمال ، وإلى الضلال ... اتجه موسى عليه السلام إلى ربه يدعوه أن يدمر هذه الأموال ، وأن يشد على قلوب أهلها فلا يؤمنوا إلا حيث لا ينفعهم إيمان[2] . ا . هـ : مختصرا .

قال الرازى : إن موسى عليه الصلاة والسلام لما بالغ فى إظهار المعجزات الظاهرة ورأى القوم مصرين على الجحود والعناد والإنكار ، أخذ يدعو عليهم ومن حق من يدعو على الغير أن يذكر أولا سبب إقدامه على تلك الجرائم ، وكان جرمهم هو أنهم لأجل حبهم الدنيا تركوا الدين .

والمقصود بالزينة فى الآية : الصحة والجمال واللباس والدواب وأثاث البيت والمال ما يزيد على هذه الأشياء من الصامت والناطق[3] .

حادى عشر : زينة عارية القبط :

قال تعالى : قالوا ما أخلفنا موعدك بملكنا ولكنا حملنا أوزاراً من زينة القوم فقذفناها فكذلك ألقى السامرى »[4] .

---

(١) سورة يونس آية ٨٨

(٢) فى ظلال القرآن جـ ٣ صـ ١٧ ، ١٨

(٣) الفخر الرازى جـ ١٧ صـ ١٤٤٩ (٤) سورة طه آية ٨٧

والمعنى : أن بنى إسرائيل قالوا لنبيهم موسى عليه الصلاة والسلام على سبيل الاعتذار الذى هو أقبح من الذنب ما أخلفنا موعدك فعبدنا العجل بأمرنا وطاقتنا واختيارنا ، فقد كان الحال أكبر من أن يدخل تحت سلطاننا ولو خلينا بيننا وبين أنفسنا ولم يسول لنا السامرى ماسول لبقينا على العهد الذى عاهدناك عليه وهو أن نعبد الله — تعالى — وحده .

وقوله : « ولكنا حملنا أوزاراً ... إلخ الآية حكاية لبقية ما قالوه من أعذار قبيحة .

قال الألوسى : المراد بالقوم : القبط وبالأوزار : الأحمال ، وتسمى بها الآثام وقصدوا بذلك ما استعاروه من القبط من الحلى فى عيدهم قبيل الخروج من مصر ، وقيل استعاروه باسم العرس وقيل : هى ما ألقاه البحر على الساحل مما كان على الذين غرقوا وهو فرعون وجنوده ، فأخذ بنو إسرائيل ذلك على أنه غنيمة مع أنها لم تكن حلالا لهم .

أى : قال بنو إسرائيل لموسى عليه السلام : ما أخلفنا عهدك بأمرنا ، ولكنا حملنا أثقالا وإحمالا من زينة القبط التى أخذناها منهم بدون حق « فقذفناها » فى النار بتوجيه من السامرى « فكذلك » أى : فكما ألقينا ما معنا « ألقى السامرى » ما معه من تلك الزينة[1] . ا . هـ مختصراً .

فقال ابن كثير : وحاصل ما اعتذر به هؤلاء الجهلة أنهم تورعوا عن زينة القبط فألقوها عنهم فعبدوا العجل ، فتورعوا عن الحقير ، وفعلوا الأمر الكبير[2] . ا . هـ .

(١) روح المعانى للألوسى جـ ١٦ صـ ٢٤٦
(٢) ابن كثير جـ ٣ صـ ١٦٢

ثانى عشر : زينة قتل الولدان :

قال تعالى : « وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم ليردوهم وليلبسوا عليهم دينهم[1] ... إلخ الآية » .

يحكى الله فى هذه الآية رذيلة من رذائل المشركين ألا وهى زينة قتل الولدان ، لقد زين للمشركين شركاؤهم من الشياطين أو السدنة قتل بناتهم خشية العار أو الفقر ، وسميت الشياطين شركاء لأنهم أطاعوهم فى معصية الله تعالى وأضيفت الشركاء إليهم لأنهم اتخذوها كقوله تعالى : « أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون » .

وقال الكلبى : كان لآلهتهم سدنة وخدام ، وهم الذين كانوا يزينون للكفار قتل أولادهم ، وكان الرجل يقوم فى الجاهلية فيحلف بالله لئن ولد له كذا وكذا غلاماً لينحرن أحدهم كما حلف عبد المطلب لئن رزقه الله بعشر من الذكور ليذبحن منهم واحداً .

قال صاحب كتاب (فى ظلال القرآن) : والنص يصرح بالهدف الكامن وراء التزين « ليردوهم ، وليلبسوا عليهم دينهم » ليهلكوهم وليجعلوا دينهم عليهم متلبسا غامضا لايقفون منه على تصور واضح ... فأما الهلاك فيتمثل ابتداء فى قتلهم لأولادهم ، ويتمثل أخيراً فى فساد الحياة الإجتماعية بجملتها وصيرورة الناس ماشية ضالة يوجهها رعاتها المفسدون حيثما شاءوا وفق أهوائهم ومصالحهم حتى ليتحكمون فى أنفسهم وأولادهم وأموالهم بالقتل والهلاك ، فلا تجد هذه الغنم الضالة لها مفراً من الخضوع لأن التصورات الملتبسة بالدين والعقيدة — وماهى منها — بكل ثقلها وعمقها

(١) سورة الأنعام آية ١٣٧

تتعاون مع العرف الاجتماعى المنبثق منها ، وتنشىء ثقلا ساحقاً لا تقف له جماهير الناس ، فالم تعتصم منه بدين واضح ، ومالم ترجع فى أمرها كله إلى ميزان[1] ثابت .

ثالث عشر : زينة الحياة لذوى الطغيان :

قال تعالى : « زين للذين كفروا الحياة الدنيا ويسخرون من الذين آمنوا والذين اتقوا فوقهم يوم القيامة والله يرزق من يشاء بغير حساب[2] » .

التزين : جعل الشىء زيناً أى شديد الحسن ، والحياة نائب فاعل زين ، ولم تلحق تاء التأنيث بالفعل لأن نائب الفاعل مجازى التأنيث ولوجود الفاصل بين الفعل ونائب الفاعل .

والمعنى : أن الحياة الدنيا قد زينت للكافرين فأحبوها وتهافتوا عليها تهافت الفراش على النار وصارت متعها وشهواتها كل تفكيرهم ، أما الآخرة فلم يفكروا فيها ، ولم يهيئوا أنفسهم للقائها .

قال القرطبى : والمزين هو خالقها ومخترعها وخالق الكفر ، ويزينها أيضاً الشيطان بوسوسته وإغوائه ، وخص الذين كفروا بالذكر لقبولهم التزين جملة وإقبالهم على الدنيا وإعراضهم عن الآخرة بسببها .

وقد جعل الله على الأرض زينة لها ليبلو الخلق أيهم أحسن عملا ، فالمؤمنون هم على سنن الشرع لم تفتنهم الزينة ، والكفار تملكتهم لأنهم لا يعتقدون غيرها »[3] .

(١) فى ظلال القرآن جـ ٣ ص ١٢١٨ — ١٢١٩
(٢) سورة البقرة آية ٢١٢ (٣) القرطبى جـ ١ ص ٨٣٦

وقوله : « ويسخرون من الذين آمنوا » معطوف على جملة « زين للذين كفروا » ، أو خبر محذوف أى وهم يسخرون وتكون الواو للحال .

« ويسخرون : يضحكون ويهزأون ، يقال : سخرت منه وسخرت به وضحكت منه وضحكت به .

أى إن الذين كفروا لا يكتفون بحبهم الشديد لزينة الحياة الدنيا وشهواتها ، وإنما هم بجانب ذلك يسخرون من المؤمنين لزهدهم فى متع الحياة ، لأن الكفار يعتقدون أن مايمضى من حياتهم فى غير متعة فهو ضياع منها ، وأنهم لن يبعثوا ولن يحاسبوا على مافعلوه فى دنياهم ، أما المؤمنون فهم يتطاعون إلى نعيم الآخرة الذى هو أسمى وأبقى من نعيم الدنيا .

وجىء بقوله : « زين » ماضياً للدلالة على أنه قد وقع وفرغ منه وجىء بقوله « ويسخرون » مضارعاً للدلالة على تجدد سخريتهم من المؤمنين وحدوثها بين وقت وآخر قال تعالى « إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون وإذا مروا بهم يتغامزون ... »[1] .

وفى عصرنا الحديث تتعالى صيحات الماديين والمتقدمين والملاحدة وغيرهم من الذين آتاهم الله بسطة فى الرزق وسعة فى العيش يسخرون من المؤمنين ويستهزءون بهم ويظنون أن الدين هو السبب فى تقهقرهم إلى الوراء وهو السبب فى جهلهم وعدم تقدمهم ويدعى بعضهم أن الدين هو مخدر الشعوب ، ونسوا أو تناسوا أنهم مع ما أوتوا من حضارة ورقوا من تقدم فإن حياة القلق والأرق هى السائدة بينهم وكثيراً ما نقرأ فى الصحف عن انتحار الكثير من هؤلاء فما أغنت عنهم مدنيتهم شيئاً

(١) سورة المطففين آية ٢٩ ، ٣٠

ولادفعت عنهم مالحق بهم ومايلحق من أمراض وعلل وأوبئة يتحيرون فى علاجها إلى الآن مثل مرض الإيدز .

ومما زادهم طغيان على طغيانهم اعتماد مسلمى اليوم عليهم فى جميع أحوالهم واستيراد كل جديد يأتون به سواء كان نافعاً أو ضاراً من غير تمييز ، وتحقق قول النبى ﷺ : « لتتبعن سنن من قبلكم شبراً بشبر وزراعا بزراع حتى لو سلكوا جحر ضب خرب لسلكتموه وراءه[1] ... » إلخ الحديث . فكانت النتيجة أن وكلهم الله إليهم ، ولو اتبعوا كتاب ربهم وسنة نبيهم واعتمدوا على الله فى الأخذ بأسباب الحياة والتقدم وأخذوا ماينفعهم من المدنية الحديثة وتركوا الضار منها وحكموا عقولهم وفق ما تقتضيه تعاليم الإسلام لتحققت النتيجة والقانون الذى قال الله فيه : « ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون »[2] وقانون الله لايتخلف ووعد الله صدق وقد أكد الله فى هـــذه الآية ذلك بعدة مؤكدات :

« إن » و « اللام » و « إسمية الجملة » والفائل هو الله جل جلاله « ومن أصدق من الله حديثاً ومن أصدق من الله قيلا » .

أما المؤمنون الصادقون فيخبر الله عنهم بقوله . « والذين اتقوا فوقهم يوم القيامة » ردا منه سبحانه — على هؤلاء الكفار الذين يسخرون من المؤمنين ، والذين يرون أنفسهم أنهم فى زينتهم ولذاتهم أفضل من المؤمنين فى نزاهتهم وصبرهم على بأساء الحياة وضرائها .

(١) رواه البخارى وغيره .
(٢) سورة الأعراف آية ٩٦

أى : والذين اتقوا الله — تعالى — وصانوا أنفسهم عن كل سوء فوق أولئك الكافرين مكانة ومكانا يوم القيامة لأن تقواهم قد رفعتهم إلى أعلا عليين ، أما الذين كفروا فإن كفرهم قد هبط بهم إلى النار وبئس القرار .

قال الزمخشرى : فإن قلت . لم قال « من الذين آمنوا » ثم قال « والذين اتقوا » ؟ قلت : ليريك أنه لا يسعد عنده إلا المؤمن التقى ، وليكون بعثاً للمؤمنين على التقوى إذا سمعوا[1] ذلك » .

وقيدت الفوقية بيوم القيامة للتنصيص على دوامها ، لأن ذلك اليوم هو مبدأ الحياة الأبدية ولإدخال السرور والتسلية على قلوب المؤمنين حتى لايتسرب اليأس إلى قلوبهم بسبب إيذاء الكافرين لهم فى الدنيا .

وقوله : « والله يرزق من يشاء بغير حساب » تذييل قصد به تشريف المؤمنين وبيان عظم ثوابهم .

رابع عشر : زينة حب الشهوات :

قال تعالى : « زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث[2] ... إلخ الآية » .

المراد بالناس فى هذه الآية : هم المكلفون لأن الكلام فى إرشادهم فلا معنى للبحث فى الأطفال هنا والشهوات جمع شهوة وهى انفعال النفس

(١) الكشاف جـ ١ صـ ٣٥٥
(٢) سورة آل عمران آية ١٤

بالشعور بالحاجة إلى ما تستنده ، والمراد بها هنا المشتهيات على طريق المبالغة ، وهى شائعة الاستعمال ، يقال هذا الطعام شهوة فلان أى: مشتهاه ومعنى تزيين حبها لهم : ان حبها مستحسن عندهم لا يرون فيه شيئا (قبحا) ولا غضاضة .

وقد اختلف المفسرون فى إسناد التزين فى هذا المقام ، فأسنده بعضهم الى الشيطان لأن حب الشهوات مذموم لاسيما وقد أطلقت هنا ، فدخل فيها المحرمات فى رأيهم ، ولأن حب كثرة المال مذموم فى الدين بحسب فهمهم له ، ولأنه سمى ذلك متاع الحياة الدنيا وهى مذمومة عندهم ولأنه فضل عليه ما اعده للمتقين يوم القيامة ويؤثر هذا الإسناد عن الحسن ، وأسنده بعضهم الى الله تعالى ، لأنه تعالى : أباح الزينة والطيبات وأنكر على من حرم ذلك بقوله :«قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق ، قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة»(١) .

فجعل إباحتها فى الدنيا غير منافية لنيلها فى الآخرة بتكثير النسل وكثرة الصدقات والميراث والجهاد ، وعزى هذا القول إلى جمهور المعتزلة .

وقال بعض المعتزلة بالتفصيل فقسم الشهوات الى محمودة ومذمومة أو مباحة ومحرمة ، وقال : ان الله زين القسم الأول ، والشيطان زين القسم الثانى .

ويعقب صاحب المنار على ذلك بأن الجميع قد غفلوا عن كون الكلام فى طبيعة البشر ، وبيان حقيقة الامر فى نفسه لا فى جزئياته وافراد وقائعه ، فالمراد أن الله تعالى أنشأ الناس على هذا وفطرهم عليه ومثل هذا لا يجوز إسناده الى الشيطان بحال(٢) .

(١) سورة الإعراف آية ٣٢
(٢) المنار جـ٣ صـ١٩٦

ومما يرجح هذا القول ما أخرجه ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن أبى حاتم عن سيار بن الحكم أن عمر بن الخطاب قرأ «زين للناس» الآية ثم قال الان يارب وقد زينتها فى القلوب .

وأخرج ابن أبى شيبة وعبد الله بن أحمد فى زوائد الذهد وابن أبى حاتم عن أسلم قال : رأيت عبد الله بن أرقم جاء الى عمر بن خطاب بحلية آنية وفضة فقال عمر : اللهم إنك ذكرت هذا المال فقلت .« زين للناس حب الشهوات» حتى ختم الآية وقلت : لا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم وإنا لا نستطيع الا أن نفرح بما زينت لنا ، اللهم فاجعلنا ننفقه فى حق وأعوذ بك من شره .

وأيضا : ما روى ان النبى ﷺ قال:«حبب إلى من دنياكم هذه النساء والطيب وجعل قرة عينى الصلاة» فالفعل هنا مبنى للمجهول ونائب الفاعل هو الله ولا يمكن ان يكون هو الشعطان فليس للشيطان على نبى صلى الله عليهم وسلم أجمعين من سبيل ومن هنا تتبين ان المزين فى هذه الآية هو الله جل جلاله .

خامس عشر : زينة العصيان فى أعين ذوى الخذلان :

قال تعالى :«أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا فان الله يضل من يشاء ويهدى من يشاء(١) ... الخ» الآية .

قال الرازى : «يعنى ليس من عمل سيئا كالذى عمل صالحا ، كما قال بعد هذا بآيات وما يستوى الأعمى والبصير ، ولا الظلمات ولا النور ، وله تعلق بما قبله وذلك من حيث إنه تعالى اما بين حال المسيء الكافر والمحسن المؤمن ، وما من أحد يعترف بأنه يعمل سيئا إلا قليل ، فكان الكافر

(١) سورة فاطر آية ٨

يقول الذى له العذاب الشديد هو الذى يتبع الشيطان وهو محمد وقومه الذين استهوتهم الجن فاتبعوها والذى له الاجر العظيم نحن الذين دمنا على ما كان عليه آباؤنا فقال تعالى لستم انتم بذلك فان المحسن غير، ومن زين له العمل السيىء فرآه حسنا غير، بل الذين زين لهم السيىء من دون أساء وعلم أنه مسيىء فإن الجاهل الذى يعلم جهله والمسيىء الذى يعلم سوء عمله يرجع ويتوب والذى لا يعلم يصر على الذنوب والمسيىء العالم له صفة ذم بالاساءة وصفة مدح بالعلم.

والمسيىء الذى يرى الاساءة احسانا له صفتا ذم الاساءة والجهل[1] ا. هـ.

ونظير هذه الآية قوله تعالى: «قل هل أنبئكم بالآخسرين أعمالا الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا»[2].

قال صاحب كتاب (فى ظلال القرآن): «إنها حقيقة نفسية دقيقة عميقة يصورها القرآن فى ألفاظ معدودة: «أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا»، إنه نموذج الضال الهالك البائر الصائر إلى شر مصير ومفتاح هذا كله هو هذا التزين. هو هذا الغرور، هو هذا الستار الذى يعمى قلبه وعينه فلا يرى مخاطر الطريق ولا يحسن عملا لأنه مطمئن إلى حسن عمله وهو سوء.

ولا يصلح خطأ لأنه واثق انه لا يصلح فاسدا لأنه مستيقن أنه لا يفسد، ولا يقف عند حد لأنه يحسب أن كل خطوة من خطواته إصلاح.

إنه باب الشر ونافذة السوء ومفتاح الضلال الأخير... ويدع السؤال بلا جواب... «أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا؟» ليشمل كل جواب كأن يقال: أفهذا يرجى له صلاح ومتاب؟ أفهذا كمن يحاسب نفسه

(١) الفخر الرازى جـ٢٦ ص٦

(٢) الآية ١٠٤ من سورة الكهف

ويراقب الله؟ أفهذا يستوى مع المتواضعين الاتقياء؟ ... إلى آخر صور الإجابة على مثل هذا السؤال وهو أسلوب كثير التردد فى القرآن الكريم.

وتجيب الآية بأحد هذه الاجوبة من بعيد: «فان الله يضل من يشاء ويهدى من يشاء فلا تذهب نفسك عليهم حسرات»[1] ا. هـ.

أى: أن الناس أشخاصهم متساوية فى الحقيقة والإساءة والإحسان والسيئة والحسنة يمتاز بعضها عن بعض فإذا عرفها البعض دون البعض لا يكون ذلك باستقلال منهم، فلا بد من الاستناد إلى إرادة الله.

أخرج ابن جرير من طريق جويبر عن الضحاك رضى الله عنه قال: أنزلت هذه الآية «أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا» حيث قال النبى ﷺ: اللهم أعز دينك بعمر بن الخطاب أو بابى جهل بن هشام فهدى الله عمر رضى الله عنه رأضل أبا جهل ففيهما أنزلت ا. هـ.

والحق أن الآية عامة فى كل من زين له سوء عمله فرآه حسنا لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

سادس عشر: زينة أحوال الماضين والباقين فى عيون الكفار استدراجا لهم.

قال تعالى: «وقيضنا لهم قرناء فزينوا لهم ما بين أيديهم وما خلفهم وحق عليهم القول فى أمم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس إنهم كانوا[2] خاسرين.

بينت هذه الاية حيثية من حيثيات القوم الذين استحقوا من أجلها العذاب.

فقد جاءت هذه الآية بعد ما قص الله سبحانه وتعالى قصة عاد وثمود وما حاق بهم من العذاب بسبب استكبارهم عن الحق واعراضهم عن الهدى.

(١) فى ظلال القرآن جـ٥ ص٢٩٢٧ (٢) سورة فصلت آية ٢٥

ثم بين الله تعالى جزاء أعداء الله جميعاً ويدخل فيهم — عاد وثمود دخولا أولياً — وما يلقونه من أهوال العذاب وفظاعة النار من أجل ما ارتكبوه من عصيان حيث شهدت عليهم أجسادهم بذلك وقالوا : مستغربين كما حكى القرآن « وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا : أنطقنا الله الذى أنطق كل شيء وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون».

ثم بين سبحانه حيثيات استحقاقهم هذا العذاب وذلك فى أمرين : —

الأول : أنهم كانوا يظهرون معاصيهم غير مبالين بهم ظانين أن الله لا يعلم كثيراً مما يعملون .

الثانى : قوله تعالى : « وقيضنا لهم قرناء ... الآية » .

وفى معنى هذه الآية يقول ابن كثير: « يذكر تعالى أنه هو الذى أضل المشركين وأن ذلك بمشيئته وكونه وقدرته وهو الحكيم فى أفعاله بما قيض لهم من القرناء من شياطين الأنس والجن « فزينوا لهم ما بين أيديهم وما خلفهم » أى : حسنوا لهم أعمالهم فى الماضى وبالنسبة إلى المستقبل فلم يروا أنفسهم إلا محسنين كما قال تعالى « ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون »[1] ا.هـ.

وفى المراد بقوله : (ما بين أيديهم وما خلفهم) ذكر العلماء ثلاثة أقوال[2]

أحدها : ما بين أيديهم : من أمر الآخرة أنه لا جنة ولا نار ولا بعث ولا حساب ، وما خلفهم : أمر الدنيا بفعل الحرام وارتكاب الآثام

(١) تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٩٧

(٢) زاد المسير جـ ٧ ص ٢٥٢

والمجاهرة بالفسق الكبيرة العظام وجمع الأموال وترك الإنفاق فى الخير .

الثانى : ما بين أيديهم : من أمر الدنيا ، وما خلفهم من أمر الآخرة، على عكس الأول .

الثالث : ما بين أيديهم : ما فعلوه ، وما خلفهم : ما عزموا على فعله وهذا ضعيف لأن الله لا يأخذ الإنسان إلا بما عمل وقد جاء فى الحديث القدسى « ومن هم بسيئة فلم يعملها لم تكتب عليه بشيء ومن عملها كتبت عليه بسيئة واحدة » . وقوله تعالى : «وحق عليهم القول » أى كلمة العذاب كما حق على أمم قد خلت من قبلهم ممن فعل كفعلهم من الجن والأنس إنهم كانوا خاسرين أى استووا جميعا فى الخسار والدمار .

سابع عشر : زينة الله لأعدائه خذلانهم :

قال تعالى : « إن الذين لا يؤمنون بالآخرة زينا لهم أعمالهم فهم يعمهون »[1] .

هذه الآية بيان لأحوال الكفرة الذين لا يؤمنون بالآخرة وبما فيها من الثواب على الأعمال الصالحة والعقاب على الأعمال السيئة حسبما ينطق به القرآن الكريم .

« زينا لهم أعمالهم » القبيحة بما ركبنا فيهم من الشهوات والأمانى حتى رأوها حسنة .

« فهم يعمهون » يتحيرون ويترددون والاستمرار فى الاشتغال بها

(١) سورة النمل آية ٤

والأنهمال فيها من غير ملاحظة لما يتبعها ، والفاء لترتيب المسبب على السبب ونسبة التزيين إليه عز وجل عند الجماعة حقيقة وكذا التزيين نفسه .

قال صاحب الظلال : « والله — سبحانه — هو الذى خلق النفس البشرية وجعلها مستعدة للاهتداء إن تفتحت لدلائل الهدى ، مستعدة للعماء إن طمست منافذ الإدراك فيها .

ومشيئته نافذة — وفق سنته التى خلق النفس البشرية عليها — فى حالتى الاهتداء والعماء .

ومن ثم يقول القرآن عن الذين لا يؤمنون بالآخرة : « زينا لهم أعمالهم فهم يعمهون » . . . فهم لم يؤمنوا بالآخرة فنفذت سنة الله فى أن تصبح أعمالهم وشهواتهم مزينة لهم حسنة عندهم ...

وهذا هو معنى التزيين فى هذا المقام »[1] ا.هـ. مختصراً .

وقال الزمخشرى : « إن التزيين إما مستعار للتمتيع بطول العمر وسعة الرزق، وإما حقيقة وإسناده إليه سبحانه وتعالى مجاز وهو حقيقة للشيطان كما فى قوله تعالى: «زين لهم الشيطان أعمالهم » والمصحح لهذا المجاز إمهاله تعالى الشيطان وتخليته حتى يزين لهم، والداعى له إلى أحد الأمرين إيجاب رعاية الأصلح عليه عز وجل[2] .

وهذا هو مذهب المعتزلة الذين يقولون بوجوب فعل الصلاح والأصلح على الله .

(١) فى ظلال القرآن جـ ٥ ص ٢٦٢٧

(٢) الكشاف جـ ٣ ص ١٣٦

ومن يقل فعل الصلاح وجبا
على الله فقد أساء الأدبا

وقوله : « فهم يعمهون » أى لا يرون ما فيها من شر وسوء أو فهم حائرون لا يهتدون فيها إلى صواب وذلك بسبب خذلان الله لهم .

ثامن عشر : زينة الشيطان الضلال لمتبعيه :

وردت كلمة « زين » مسندة إلى الشيطان فى خمس آيات من القرآن الكريم ومرة واحدة مسندة إلى ضميره كذلك فى قوله تعالى: « قال رب بما أغويتنى لأزينن لهم الأرض ولأغوينهم أجمعين » .

وتزيين الشيطان فى الآيات معناه الوسوسة وتحسين القول وزخرفته فهو محمول على المجاز لا على الحقيقة ، وقد جعله الراغب أنه على الحقيقة لأن التزين عنده بمعنى إيجاد الشيء مزينا فهو فى الحقيقة مسند إلى الله وبمعنى تحسين القول فهو فى الحقيقة مسند إلى الشيطان .

أما المعتزلة فإن نسبة التزيين إلى الشيطان عندهم على سبيل الحقيقة ونسبته إلى الله على سبيل المجاز وهذا تعسف منهم وخروج على حد الأدب كما ذكرنا .

والحق مع أهل السنة والجماعة ونكتفى بآية واحدة فى هذا المجال .

قال تعالى : « تالله لقد أرسلنا إلى أمم من قبلك »[1] ، فى هذه الآية تسلية للرسول ﷺ عما كان يناله من جهالات قومه الكفرة ووعيدهم على ذلك ، ولا يخفى ما فى ذلك من عظيم التأكيد أى أرسلنا رسلا إلى

(١) سورة النحل آية ٦٣

أمم من قبل أمتك أو من قبل إرسالك إلى هؤلاء فدعوهم إلى الحق «فزين لهم الشيطان أعمالهم» القبيحة فلم يتركوها ولم يمتثلوا الرسل عليهم السلام، وقد تقدم الكلام فى نسبة التزيين إلى الشيطان، «فهو وليهم» أى قرين الأمم وبئس القرين أو متولى إغوائهم وصرفهم عن الحق، «اليوم» أى يوم زين الشيطان أعمالهم فيه وهو وأن كان ماضياً واليوم المعرف معروف فى زمان الحال كالآن لكن صور بصورة الحال ليستحضر السامع مع تلك الصورة العجيبة ويتعجب منها، وسمى مثل ذلك حكاية الحال الماضية وهو استعارة من الحضور الخارجى للحضور الذهنى أو المراد باليوم مدة الدنيا لأنها كالوقت الحاضر بالنسبة للآخرة وهى شاملة للماضى والآتى وما بينهما أى فهو وليهم فى الدنيا «ولهم» فى الآخرة «عذاب أليم» وهو عذاب النار، وقد ورد اطلاق اليوم على مدتها كثيراً فهو مجاز متعارف وليس فيه حكاية لما مضى أو يوم القيامة الذى فيه عذابهم لكن صور بصورة الحال استحضاراً له كما فى الوجه الأول إلا أنه حكاية حال آتية وفى الأول حكاية حال ماضية وليس من مجاز الأول، والولى على هذا بمعنى الناصر أى لا ناصر لهم فى ذلك اليوم غيره وهو نفى للناصر على أبلغ وجه على حد قوله:

وبلدة ليس بها أنيس ... إلا اليعافير وإلا العيس

ولا يجوز أن يكون بمعنى المتولى للإغواء إذ لا إغواء ثمة ولا بمعنى القرين لأنه فى الدرك الأسفل من النار، وجوزه بعضهم باعتبار أنه معهم فى النار فى الجملة ولا يضر اختلافهم فى الدركات، والله أعلم.

تاسع عشر: زينة المسافرين بما يركب:

قال تعالى: «والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لا تعلمون»[1].

قال الجمل: الخيل اسم جنس لا واحد له من لفظه. بل من معناه وهو فرس، وسميت خيلا لاختيالها فى مشيها، والبغال جمع بغل: وهو المتولد بين الخيل والحمير»[2]...

واللام فى قوله: «لتركبوها» للتعليل وهى ليست على حقيقتها لأن أفعال الله تعالى لا تعلل بالمصالح والأغراض وإنما هى معناها الترجى والتمنى مثل لعلكم تذكرون، وإنما جىء باللام أى: لو أن خلق الخيل والبغال والحمير أسند إليكم لقلتم خلقناها للركوب أى: لعلكم تركبوها ويجوز أن تثبت اللام فيما لا يصح غرضا كما فى الوقت قال تعالى: «أقم الصلاة لدلوك الشمس».

وقوله تعالى: «فطلقوهن لعدتهن» والمراد المقارنة.

ولفظ «زينة» مفعول لأجله معطوف على محل «لتركبوها» والزينة اسم لما يتزين به الإنسان».

قال القرطبى: هذا الجمال والتزين وإن كان من متاع الدنيا، إلا أن الله تعالى — أذن به لعباده، فى الحديث الشريف: «الإبل عز لأهلها، والغنم بركة والخيل فى نواصيها الخير»، أخرجه البرقانى وابن ماجه فى السنن...».

---

(١) سورة النحل آية ٨

(٢) حاشية الجمل جـ ٢ ص ٥٥٩

والمعنى : ومن مظاهر فضله عليكم ورحمته بكم ، أنه خلق لمنفعتكم — أيضاً — الخيل والبغال والحمير ، لتركبوها فى غزوكم وتنقلاتكم، ولتكون زينة لكم فى أفراحكم ومسراتكم .

وأتى — سبحانه — باللام فى « لتركبوها » دون ما بعدها للإشارة إلى أن الركوب هو المقصود الأصلى بالنسبة لهذه الدواب ، أما التزين بها فهو أمر تابع للركوب ومتفرع عنه[1] .

قال صاحب الظلال : « وفى الخيل والبغال والحمير تلبية للضرورة فى الركوب ، وتلبية لحاسة الجمال فى الزينة .

وهذه اللفتة لها قيمتها فى بيان نظرة القرآن ونظرة الإسلام للحياة.

فالجمال — المتمثل فى الزينة — عنصر له قيمة فى هذه النظرة وليست النعمة هى مجرد تلبية الضرورات بل أيضا تلبية حاسة الجمال ووجدان الفرح والشعور ، الإنسانى المرتفع على ميل الحيوان وحاجة الحيوان[2].

وقال العلماء : وقد استدل بهذه الآية ، القائلون بتحريم لحوم الخيل ، قائلين بأن التعليل بالركوب والزينة يدل على أنها مخلوقة لهذه المصلحة دون غيرها ... وأجاب المجوزن لأكلها بأن ذكر ما هو الأغلب من منافعها — وهو الركوب والزينة — لا ينافى غيره ...

وقد بسط الإمام القرطبى القول فى هذه المسألة فلتراجع فى مظانها.

ويرحم الله الإمام البغوى إذ يقول : ليس المراد من الآية بيان

(١) القرطبى جـ ٥ ص ٣٦٩٥ — ٣٦٩٥

(٢) فى ظلال القرآن جـ ٤ ص ٢١٦١

التحليل والتحريم ، بل المراد منها تعريف الله عباده نعمه ، وتنبيههم على كمال قدرته وحكمته .

هذا وقد ختم — سبحانه — الآية الكريمة بما يدل على عظيم قدرته ، وسعة علمه فقال :

« ويخلق ما لا تعلمون » أى : ويخلق — سبحانه — فى الحال ، والاستقبال ، ما لا تعلمونه — أيها الناس — من أنواع المخلوقات المختلفة سوى هذه الدواب ، كالسفن التى تمر عباب الماء والطائرات التى تشق أجواز الفضاء ، والسيارات التى تنهب الأرض نهبا لسرعتها ، وغير ذلك من أنواع المخلوقات التى لا يعلمها سواه — سبحانه — والتى أوجدها لمنفعتكم ومصالحكم ...

وهذه الجملة الكريمة تدل على أن القرآن من عند الله — فقد أوجد — سبحانه — العقول البشرية ، التى ألهمها صنع الكثير من المخترعات النافعة فى البر وفى البحر وفى الجو، والتى لم يكن للناس معرفة بها عند نزول القرآن الكريم ... وتشير — أيضا — إلى مزيد فضل الله تعالى — على الناس ، حيث أخبرهم بأنه سيخلق لهم فى مستقبل الأيام من وسائل الركوب وغيرها ما فيه منفعة لهم ، سوى هذه الدواب التى ذكرها .

فعليهم أن يستعملوا هذه الوسائل فى طاعة الله — تعالى — لا فى معصيته وعليهم أن يتقبلوا هذه الدلائل وأن يفتحوا عقولهم لكل ما هو نافع .

ورحم الله صاحب الظلال : « فقد قال عند تفسيره لهذه الآية ما ملخصه: يعقب الله — تعالى على خلق الأنعام والخيل والبغال والحمير بقوله : « ويخلق ما لا تعلمون » ليظل المجال مفتوحا فى التصور البشرى ، لتقبل أنماط جديدة من أدوات الحمل والركوب والزينة ... وحتى لا يقول بعض

الناس : إنما استخدم أباؤنا الأنعام والخيل والبغال والحمير ، فلا نستخدم سواها وإنما نص القرآن على هذه الأصناف فلا نستخدم ماعداها ...

ولقد جدت وسائل للحمل والنقل والركوب والزينة ، لم يكن يعلمها أهل ذلك الزمان ، وستجد وسائل أخرى لا يعلمها أهل هذا الزمان ، والقرآن يهيىء لها القلوب والأذهان ، بلا جمود ولا تحجر ، ويخلق ما لا تعلمون »[1] .

عشرين : زينة الأرض بالنبات والرياحين :

قال تعالى : « حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت »[1] .

تصوير بديع لما صارت عليه الأرض بعد نزول الماء ، وبعد أن أنبتت من كل زوج بهيج ،

ولفظ « حتى » غاية لمحذوف : أى نزل المطر من السماء فاهتزت الأرض وربت وأنبتت النبات الذى ما زال ينمو ويزدهر حتى أخذت الأرض زخرفها .

« والزخرف » : الذهب وكمال حسن الشيء ومن القول حسنه ، ومن الأرض ألوان نباتها من حمرة وخضرة وصفرة وذهبية وبياض ، أى : حتى إذا استوفت الأرض حسنها وبهاءها وجمالها ، وأزينت بمختلف أنواع النباتات ذات المناظر البديعة والألوان المتعددة .

قال صاحب الكشاف : « وهو كلام فصيح ، جعلت الأرض آخذة

(١) فى ظلال القرآن جـ ٤ ص ٢١٦١ — ٢١٦٢

(٢) سورة يونس آية ٢٤

زخرفها وزينتها على التمثيل بالعروس إذا أخذت الثياب الفاخرة من كل لون فاكتسبها ، وتزينت بغيرها من ألوان الزينة ، أصل ازينت تزينت »[1] .

وقال الآلوسى : « وذكر غير واحد أن الكلام استعارة بالكناية ، حيث شبهت الأرض بالعروس ، وحذف المشبه به وأقيم المشبه مقامه ، وإثبات الزخرف لها تخييل ، وما بعده ترشيح »[2] .

قال الرازى : « ولا شك أنه متى صار الإنسان على هذا الوجه وبهذه الصفة فإنه يفرح به المالك ويعظم رجاؤه فى الانتفاع به ويصير قلبه مستغرقاً فيه ، ثم إنه تعالى يرسل على هذا البستان العجيب آفة عظيمة دفعة واحدة فى ليل أو نهار من برد أو ريح أو سيل فصارت تلك الأشجار والزروع باطلة هالكة كأنها ما حصلت البتة[3] .

وقوله : « كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون » تذييل قصد به الحض على التفكير والاعتبار .

الحادى والعشرون : زينة السماء لأولى الأبصار :

قال تعالى : « ولقد جعلنا فى السماء بروجا وزيناها للناظرين »[4] .

قال القرطبى : « والبروج : القصور والمنازل قال ابن عباس : أى جعلنا فى السماء بروج الشمس والقمر ، أى : منازلهما ، وأسماء هذه البروج :

(١) الكشاف جـ ٢ ص ٣٣ (٢) الآلوسى جـ ١١ ص ١٠٠

(٣) الفخر الرازى جـ ١٧ ص ٧٣

(٤) سورة الحجر آية ١٦

الحمل والثور والجوزاء والسرطان والأسد والسنبلة والميزان والعقرب والقوس والجدى والدلو والحوت .

والعرب تعد المعرفة لمواقع النجوم وأبوابها من أجل العلوم ، ويستدلون بها على الطرقات والأوقات والخصب والجدب .

وقال الحسن وقتادة : البروج : النجوم . وسميت بذلك لظهورها وارتفاعها . وقيل البروج : الكواكب العظام(١) اهـ

قال بعض العلماء ومرجع الأقوال كلها إلى شيء واحد ، لأن أصل البروج فى اللغة الظهور ، ومنه تبرج المرأة ، باظهار زينتها ، فالكواكب ظاهرة والقصور ظاهرة ، ومنازل الشمس والقمر كالقصور بجامع أن الكل محل ينزل فيه

يحتمل أن يكون جعلنا بمعنى خلقنا فينصب مفعولا واحدا وهو (بروجا) (وفى السماء) جار ومجرور متعلق بمحذوف على انه حال من مفعول الجعل وكان فى الأصل صفة لهذا المفعول فلما قدم عليه أعرب حالا لأن نعت النكرة إذا قدم عليها يعرب حالا كما قرر العلماء .

أى ولقد خلقنا وأبدعنا منازل وطرقاً فى السماء ، تسير فيها الكواكب بقدرتنا ، وإرادتنا وحكمتنا دون خلل أو اضطراب .

ويحتمل أن يكون (جعلنا بمعنى (صيرنا) فينصب مفعولين الأول هو (بروجا) مؤخرا والثانى هو (فى السماء) وهو جار ومجرور متعلق بمحذوف مفعول ثان للجعل قدم على المفعول الأول اهـ .

وفى ذلك الخلق مافيه من منافع لكم حيث تستعملون هذه البروج فى ضبط المواقيت وفى تحديد الجهات ، وفى غير ذلك من المنافع كما قال تعالى

(١) القرطبى جـ ٤ صـ ٣٦٢٥

(٣) سورة يونس الآية ٥

هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نوراً وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ماخلق الله ذلك إلا بالحق يفصل الآيات لقوم يعلمون(٢)

وافتتح سبحانه الآية الكريمة بلام القسم وقد وإسناد الفعل إلى نون العظمة تنزيلا للمخاطبين الذاهلين عن الالتفات إلى مظاهر قدرة الله - تعالى - منزلة المنكرين ، فأكد لهم الكلام بأكثر من مؤكد (لام القسم وقد وإسناد الفعل إلى نون العظمة وهى ضمير المتكلم المعظم نفسه) لينتبهوا ويعتبروا.

والضمير فى قوله : « وزيناها » يعود إلى السماء أى : وزينا السماء بتلك البروج المختلفة الأشكال والأضواء لتكون جميلة فى عيون الناظرين إليها وآية للمتفكرين فى دلائل قدرة الله تعالى وبديع صنعه .

وذكر العلماء قولين فى المراد بالناظرين

أحدهما : انهم المبصرون إليها لأنه المناسب للتزيين :

والثانى : المعتبرون وقد أشار الألوسى إلى ذلك الرأى بقوله :

«وجوز أن يراد بالتزيين ترتيبها على نظام بديع مستتبعاً للآثار الحسنة فيراد بالناظرين المتفكرون المستدلون بذلك على قدرة مقدرها وحكمة مدبرها جل شأنه» اهـ .

وقد بينت فى معنى الآية تلازم المعنيين لأن النظر بدون اعتبار كلا نظر :

والعرب كانوا ينظرون إلى السماء ولكنهم لا ينظرون نظرة اعتبار وتفكر . فقد وبخهم الله بقوله : « أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ومالها من فروج . ولأن النفس كلما زادت فى الكون نظراً واعتبارا ازدادت نوراً واستبصارا .

وهذه الآية الكريمة تلفت الأنظار إلى أن الجمال غاية مقصودة فى خلق هذا الكون « كما تشعر المؤمنين بأن من الواجب عليهم أن يجعلوا حياتهم مبنية على الجمال فى الظاهر والباطن تأسياً — بسنة — الله تعالى — فى خلق هذا الكون . وقد أشرت إلى هذا من قبل والله أعلم

الثانى والعشرون : زينة الفلك بالكواكب :

قال تعالى : « إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب »[1].

يخبر تعالى أنه زين السماء الدنيا للناظرين إليها من أهل الأرض بزينة الكواكب .

قرأ ابن كثير ونافع وابن عامر وأبو عمرو الكسائى « بزينة الكواكب » بإضافة بزينة إلى الكواكب أى بدون تنوين أى . بحسنها وضوئها .

وقرأ حمزة وحفص عن عاصم « بزينة » منونة وخفض « الكواكب » وجعل « الكواكب » بدلا من الزينة لأنها هى كما تقول : مررت بأبى عبد الله زيد فالمعنى : إنا زينا السماء الدنيا بالكواكب .

وقرأ أبو بكر عن عاصم « بزينة » بالتنوين وبنصب « الكواكب » والمعنى : زينا السماء الدنيا بأن زينا الكواكب فيها حين ألقيناها فى منازلها وجعلناها ذات نور .

قال الزجاج : ويجوز أن يكون « الكواكب » فى النصب بدلا من قوله « بزينة » لأن قوله « بزينة » فى موضع نصب .

وقرأ أبى بن كعب ومعاذ القارىء وأبو نهيك وأبو حصين الأسدى فى آخرين : بزينة » بالتنوين « الكواكب » برفع الباء .

قال الزجاج : والمعنى : إنا زينا السماء الدنيا بأن زينتها الكواكب وبأن زينت الكواكب[2]

(١) سورة الصافات آية ٦

(٢) زاد المسير ج ٢ ص ٤٦

قال صاحب الظلال : ونظرة إلى السماء كافية لرؤية هذه الزينة ولإدراك أن الجمال عنصر مقصود فى بناء هذا الكون ، وأن صنعة الصانع فيه بديعة التكوين جميلة التنسيق ، وأن الجمال فيه فطرة عميقة لا عرض سطحى وأن تصميمه قائم على جمال التكوين كما هو قائم على كمال الوظيفة سواء بسواء ، فكل شىء فيه يؤدى وظيفته بدقة وهو فى مجموعه جميل والسماء وتناثر الكواكب فيها . أجمل مشهد تقع عليه العين ولا تمل طول النظر إليه وكل نجمة توصوص بضوئها وكل كوكب يوصوص بنوره وكأنه عين محبة تخالسك النظر فإذا أنت حدقت فيها أغمضت وتوارت وإذا أنت التفت عنها أبرقت ولمعت وتتبع مواقعها وتغير منازلها ليلة بعد ليلة وآنا بعد آن متعة نفسية لا تملها النفس أبداً[1] . بتصرف

الثالث والعشرون : زينة الأفلاك السبع بالسيارات السبع :

قال تعالى : « ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين[2] .

قال الألوسى : هذه الآية مسوقة للحث على النظر قدرة وامتنانا وفى الإرشاد بيان لكون خلق السموات فى غاية الحسن والبهاء أثر بيان خلوها عن شائبة العيب والقصور وتصدير الجملة بالقسم لإبراز كمال العناية بمضمونها أى وبالله لقد زينا السماء « الدنيا » منكم أى التى هى أتم دنوا منكم من غيرها فدنوها بالنسبة إلى ماتحت وأما بالنسبة إلى

(١) فى ظلال القرآن ج ٤ ص ٢١٣٣

(٢) سورة الملك آية ٥

من حول العرش فبالعكس « بمصابيح » جمع مصباح وهو السراج وتجوز به عن الكواكب ثم جمع أو يجوز بالمصابيح ابتداء عن الكواكب.

وفسره بعض اللغويين بمقر السراج فيكون حينئذ تجوزاً على تجوز ولا حاجة إليه مع تصريحهم بأن المصباح نفس السراج أيضاً وتنكيرها للتعظيم أى بمصابيح عظيمة ليست كمصابيحكم التى تعرفونها وقيل للتنويع والأول أولى :

والظاهر أن المراد الكواكب المضيئة بالليل إضاءة السراج من السيارات والثوابت بناء على أنها كلها فى أفلاك ومجار متفاوتة قرباً وبعد. فى ثخن السماء الدنيا.

وكون السماء هى الفلك خلاف المعروف عن السلف وإنما هو قول قاله من أراد الجمع بين كلام الفلاسفة الأولى وكلام الشريعة فشاع بين الإسلام واعتقده من اعتقده (٢)

وقال الرازى : أعلم أن ظاهر هذه الآية لايدل على أن الكواكب مركوزة فى السماء الدنيا ، وذلك لأن السموات إذا كانت شفافة فالكواكب سواء كانت فى السماء الدنيا أو كانت فى سموات أخرى فوقها فهى لابد وأن تظهر فى السماء الدنيا وتلوح منها (٢)

وتخصيص السماء الدنيا بالتزيين لأنها إنما ترى المصابيح عليها ولا ترى جرم مافوقها أو رعاية لمقتضى أفهام العامة لتعذر التمييز بين سماء وسماء عليهم فهم يرون الكواكب كجواهر متلالئة على بساط الفلك الأزرق الأقرب

(١) الألوسى ج ٢٩ ص ٨

(٢) الفخر الرازى ج ٣٠ ص ٦٠

يقول الأستاذ أحمد حسين فى تفسيره : « من سورة الأحقاف إلى المرسلات » معلقا على هذه الآية :

ما أروع أن يكشف لنا العلم آنا بعد آن حقائق نطق بها القرآن وكان الأقدمون يقولون بها ويؤمنون بها فى غير بحث فضلا عن إحاطة ، أما نحن اليوم فقد دخلت فى دائرة علمنا المحقق وأصبحت ترى بالعين المجردة ، فهذه السماء كما نراها فوق رؤوسنا زرقاء اللون مضيئة مشرقة بنور الشمس ، هى ظاهرة بالكوكب الأرضى (الدنيا) فالغلاف الجوى المحيط بالأرض ، والذى لايتجاوز سمكه ١٢ كيلو متر ، هو الذى ينعكس عليه ضوء الشمس فتبدو الصورة والألوان وسائر المرئيات بالحالة التى نراها عليها وقد أجمع ملاحو الفضاء ، على انهم بمجرد أختراق الغلاف الجوى فى وضح النهار يرون الكون خارج سفنهم غارقا فى الظلام ، ويرون قرص الشمس متلألئا والظلام يحيط به ، بينما تتجلى تحتهم الكرة الأرضية مضيئة بنور الشمس ، كما نرى نحن القمر بالليل وهكذا أصبح يرى بالعين المجردة أن الغلاف الجوى الأرضى هو الذى يشكل « السماء الدنيا » .

وقد حاول بعض المفسرين المحدثين أن يخوض فى موضوع السموات السبع. وأن ذلك كان مفهوم الأقدمين وقد خاطبهم القرآن الكريم بمفاهيمهم ونحن نسلم أن القرآن الكريم قد خاطب العرب بمفاهيمهم فيما لا يتعارض مع حقيقة التوحيد وأصول العبادات .

ولكنه من الشطط أن يتلقف المفسر بعض الغموضات العلمية والنظريات ، وأن يحاول تفسير القرآن الكريم على ضوئها ، فعندما يقول لنا القرآن الكريم إنها سموات سبع فهى سبع ، ولاعبرة بمن يقول إنها سماء واحدة فها قد رأينا أن هذه الصورة التى عرفها البشر ، منذ كانوا بشرا ، عن

السماء هى كما قال القرآن الكريم ليست سوى السماء الدنيا ، وصدق الله العظيم عندما يقرر : « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » (١) .

ثم ختمت الآية ببيان وظيفة أخرى من وظائف المصابيح وهو قوله تعالى : « وجعلناها رجوما للشياطين » عاد الضمير فى قوله وجعلناها على على جنس المصابيح لاعلى عينها لأنه لايرمى بالكواكب التى فى السماء بل بشهب من دونها وقد تكون مستمدة منها .

قال قتاده : « خلق الله النجوم لثلاث : زينة للسماء ورجوما للشياطين وهداية للناس ، فمن قال غير ذلك فقد تأول فى كتاب الله بما لا يعرف » .

وبعد :

فهذه هى المعانى التى استعملت فيها الزينة فى القرآن الكريم ، هذا وقد جاء لفظ الزينة فى القرآن الكريم اسما وذلك تسع عشرة مرة ، وقد جاء فعلا تارة مسندا إلى الله وذلك ثمان مرات ، وتارة مسندا إلى الشيطان وذلك ست مرات (خمس مرات إلى اللفظ ومرة إلى ضميره) ، وتارة مسندا إلى شياطين الإنس والجن وذلك مرتين ، وتارة مسندا إلى الأرض وذلك مرة واحدة ، وتارة يأتى مبنيا للمجهول وذلك عشر مرات .

وقد مر الخلاف فى البحث بين أهل السنة والمعتزلة ، ونسأل الله سبحانه أن يغنينا بالعلم وأن يزينا بالحلم وأن يكرمنا بالتقوى ويجملنا بالعافية .

فإنه ولى ذلك والقادر عليه وصلى الله على معلم الناس الخير وعلى آله وصحبه وسلم :

---

(١) تفسير القرآن الكريم من سورة الأحقاف إلى سورة المرسلات للأستاذ أحمد حسين ص ٥٠٤ .

جريدة المراجع

أولا — القرآن الكريم :

١ — تفسير القرآن العظيم للحافظ اسماعيل بن كثير المتوفى سنة ٧٧٤ هـ طبعة الثانية سنة ١٣٧٣ هـ .

٢ — الجامع لأحكام القرآن للإمام أبى عبدالله محمد بن أحمد الأنصارى القرطبى طبعة الشعب .

٣ — حاشية الجمل على الجلالين المسماه بالفتوحات الآلهية تأليف سليمان بن عمر الشافعى المتوفى سنة ١٢٠٤ طبعة عيسى الحلبى .

٤ — الدر المنثور فى التفسير المأثور لجلال الدين السيوطى طبعة بيروت .

٥ — روح المعانى لمحمود شهاب الدين الألوسى المتوفى سنة ١٢٧ هـ طبعة بيروت .

٦ — زاد المسير فى علم التفسير للإمام ابن الجوزى المكتب الإسلامى للطباعة والنشر بدمشق الطبعة الأولى .

٧ — فى ظلال القرآن للشهيد سيد قطب . دار الشروق ببيروت .

٨ — الكشاف عن حقائق التنزيل تأليف أبى القسم بن عمر الزمخشرى الخوارزمى طبعه مصطفى الحلبى .

٩ — التفسير الكبير المسمى بمفاتيح الغيب للإمام فخر الدين الرازى الطبعة الأولى .

١٠ — تفسير القرآن الحكيم الشهير بتفسير المنار تأليف السيد محمد رشيد رضا مطبعة الشعب .

١١ — تفسير القرآن الكريم من سورة الأحقاف إلى المرسلات للإستاذ أحمد حسين طبعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .

ثانيا — السنة النبوية .

١ — صحيح البخارى لأبى عبد الله محمد بن اسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردزبة البخارى ط . الشعب .

٢ — صحيح مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيرى النيسابورى أبو الحسن حافظ ط . الشعب .

٣ — سنن أبى داود للإمام الحافظ أبى داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق الأزدى السجستانى ط . الشعب .

٤ — سنن بن ماجه للإمام أبى الحافظ عبد الله محمد بن يزيد القزوينى طبعة الحلبى .

٥ — سنن الترمذى لأبى عيسى محمد بن عيسى الترمذى سنة ٢٠٩ — ٢٩٧ هـ طبعة الحلبى .

٦ — سنن النسائى للإمام الحافظ أبى عبد الرحمن بن شعيب النسائى طبعة الحلبى .

٧ — مسند الإمام أحمد — طبعة المكتب الإسلامى للطباعة والنشر ببيروت .

٨ — الموطأ للإمام مالك ابن أنس طبعة الشعب .

ثالثا — كتب أخرى :

١ — بصائر ذوى التمييز تأليف مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزابادى المتوفى سنة ٨١٧ هـ ط . بيروت .

٢ — لسان العرب لابن منظور طبعة دار المعارف .

٣ — مفردات ألفاظ غريب القرآن للراغب الأصفهانى طبعة الحلبى .